مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية
مجلة علمية محكمة تصدر ربع سنوياً

نقد نقد البراجماتية

أ. غالية عطية منصور

قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ جامعة طبرق

العدد: السابع

يوليو 2021

Criticism of pragmatism

Mrs. Ghalia Attia Mansour

Department of Philosophy, College of Arts - University of Tobruk

The twentieth century is characterized by the diversity of its philosophical currents, as this century was the scene of a rapid transformation in various fields of thought and life, and these intellectual transformations contributed to the emergence of scientific currents with different directions, and the United States of America embraced the most important of those currents in that era, which is pragmatic thought.

The pragmatic current in the twentieth century adopted a new scientific approach and method, expressing the American philosophical spirit expressing that scientific era, which followed the scientific method, but despite the philosophical thought that characterized that current, it played a major role in changing life values, but that did not prevent it from His exposure to several criticisms lead to the reform of the contradiction. These criticisms were an area of critical analytical study in our research.

Therefore, this research deals with the concept of pragmatism, and shows the historical development of the emergence of the term pragmatism to contemporary pragmatism in the United States of America, and a presentation of the most important pioneers. Then the research deals with the most important principles upon which pragmatism is based and to clarify the criticism directed at it using an analytical critical methodology, and this is the aim of the research to remove confusion and ambiguity represented in showing the negative criticism of that current and ignoring the effective cycle in scientific development.

The research ends with the most important results we have reached, which represent a summary of what has been listed and criticized, then the margins of the research**.**

- ملخص البحث:

يتميز القرن العشرين بتنوع تياراته الفلسفية، حيث كان هذا القرن مسرحاً لتحولاً سريعاً في شتى مجالات الفكر والحياة ، ولقد أسهمت هذه التحولات الفكرية في ظهور تيارات علمية ذات اتجاهات مختلفة،وكانت الولايات المتحدة الأمريكية من احتضنت أهم تلك التيارات في ذلك العصر وهو الفكر البرجماتي .

فقد اعتمد التيار البرجماتي في القرن العشرين منهجاً وأسلوباً علمياً جديداً معبراً عن الروح الفلسفية الأمريكية المعبرة عن ذلك العصر العلمي، والتي انتهجت الأسلوب العلمي ، ولكن بالرغم لما تميز به ذلك التيار من فكر فلسفي لعب دوراً كبيراً لتغيير القيم الحياتية ؛إلا أن ذلك لم يمنع من تعرضه لعدة انتقادات تؤدي إلي إصلاح ما فيه من تناقض. هذه الانتقادات كانت مجالاً للدراسة التحليلية الناقدة في بحثنا .

لذا يتطرق هذا البحث إلي مفهوم البراجماتية، وتبيان التطور التاريخي لظهور لمصطلح البراجماتية وصولاً إلي البراجماتية المعاصرة في الولايات المتحدة الأمريكية ،وعرض لأهم روادها. ثم يتناول البحث أهم المبادئ التي قام عليها البراجماتية وتبيان النقد الموجه إليها بمنهجية نقدية تحليلية ،وهذا هو هدف البحث إزالة اللبس والغموض المتمثل في إظهار النقد السلبي لذلك التيار وإغفال دورة الفعال في التطور العلمي.

وينتهي البحث بأهم النتائج التي توصلنا إليها ،والتي تمثل ملخص لما تم سرده ونقده، ثم هوامش البحث.

- مقدمة

يتميز القرن العشرين بتنوع تياراته الفلسفية، حيث كان هذا القرن مسرحاً لتحولاً سريعاً في شتى مجالات الفكر والحياة ، ولقد أسهمت هذه التحولات الفكرية في ظهور تيارات علمية ذات اتجاهات مختلفة،وكانت الولايات المتحدة الأمريكية من احتضنت أهم تلك التيارات في ذلك العصر وهو الفكر البرجماتي .

فقد اعتمد التيار البرجماتي في القرن العشرين منهجاً وأسلوباً علمياً جديداً معبراً عن الروح الفلسفية الأمريكية المعبرة عن ذلك العصر العلمي، والتي انتهجت الأسلوب العلمي ، حيث كانت هذه الفلسفة خير معبر عن روح أمريكيا وروح العصر ، ولكن بالرغم لما تميز به ذلك التيار من فكر فلسفي لعب دوراً كبيراً لتغيير القيم الحياتية ؛إلا أن ذلك لم يمنع من تعرضه لعدة انتقادات تؤدي إلي إصلاح ما فيه من تناقض. هذه الانتقادات كانت مجالاً للدراسة التحليلية الناقدة في بحثنا . الذي حمل عنوان "نقد نقد البراجماتية"

وتكمن أهمية هذه الدراسة فيما قدمه التيار البرجماتي من تحولات في حياة الإنسان بصفة عامة و الأمريكي بصفة خاصة ، فقد كان داعياً للكثير من الإنجازات العلمية حققتها الولايات المتحدة الأمريكية ولازالت تحققها.

لذا سعينا من خلال بحثنا أن نهدف لإزالة اللبس والغموض المتمثل في أظهار النقد السلبي الموجه للفلسفة البرجماتية وإغفال دورها الفعال في التطور العلمي . فكان استخدامنا للمنهج التاريخي لتتبع التطور الفكري للتيار مستخدمين النقد التحليلي لأظهار الأهمية التطورية التي حققها ذلك التيار

ولتحقيق ذلك قمنا بتقسيم البحث إلي ثلاث مباحث:

المبحث الأول: تعريف مصطلح البراجماتية لغة واصطلاحاً ، والتطور التاريخي لظهوره.

المبحث الثاني: يشتمل على البراجماتية الأمريكية ونماذج بارزة لروادها.

المبحث الثالث: يشتمل على الانتقادات الموجه للفكر البرجماتي .

أما الخاتمة سوف نتناول فيها أهم الانتقادات وتحليلها .طبقاً لما تم طرحه في المباحث السابقة.

المبحث الأول: تعريف مصطلح البراجماتية والتطور التاريخي لظهوره

أولاً: البراجماتية لغة واصطلاحاً:

1- البراجماتية لغة: "البراجماتية" كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني "Pragma" ، وهي كلمة غير معروفة في المعاجم اللغوية العربية ولكن لها معاني مرادفة فهي المعنى المرادف لكلمة عمل، أما أصلها فهو من فعل فعلاً وفكر فيه أو من مارس نشاط وقام بجهد للوصول إلى نتيجة نافعة (عمر،2008،ص1554) وكلمة العمل تعني " مزاولة " أي : المزاولة المجدية ، أو العمل النافع (صليبا،د.ت،ص203)

أما بالنسبة للمعاجم اللغوية الإنجليزية والفرنسية ، ففي اللغة الإنجليزية نجد في قاموس "أكسفورد الحديث " أن البراجماتية : تعني واقعي ، عملي (فيمايد، 1998،ص577) ، وفي "المورد" لمنير البعلبكي نجد أن البراجماتية لها معاني مرادفة لكلمة عمل منها الاستشراق ، العمل (البعلبكي، 1977،ص67) ، وفي اللغة الفرنسية تعني كلمة البراجماتية : الفعلانية ، الواقعية(http//Gloshe.com.D,Dixel dictionnaire, 2010,p1518) وتدل على الحدث الملموس الذي يخص العمل. هذا فيما يخص المعنى اللغوي.

أما البراجماتية اصطلاحاً: كثيراً ما يطلق هذا الاصطلاح فلسفياً على المذهب الذي يرى أن معيار صدق الأفكار أو الآراء: إنما هو في قيمة عواقبها عملاً ، وأن الحقيقة تعني في صميم التجربة الإنسانية، وأن المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة ، وأن صدق قضية ما هو في كونها مفيدة ، وأن الفكر في طبيعته غائي (وهبة، 1979،ص74)فالبرجماتية فلسفة تؤمن بالأسلوب العلمي وتطبيقه التجريبي ، لذا فالعقل يستطيع حل المشكلات من خلال استخدام التجريب ،ومن خلالهما نستخرج النظرية العلمية.

إذاً فالبراجماتية تعني عمل الشيء وفعله أو الفعل المؤثر وأن الفكرة الصحيحة هي الفكرة

الناجحة ، أي الفكرة التي تحققها التجربة ، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية ، وهذا يعني أن النتائج أو الثمار المستخلصة هي التي تحدد قيمة أي فكرة

وتسمى البراجماتية أيضاً بـ "الذرائعية" : وذلك لأن إحدى ترجمات الجذر اللغوي "براجما" يأتي بمعنى " ذريعة "وفيها يحدد قيمة الصدق بفائدته العملية عن نظرية ما كنظرية الصدق، والصدق ما ينفع على أفضل وجه بحيث يقودنا إلى قصدنا ، وهو ما يلائم كل جزء من الحياة على أفضل وجه (حسيبه،2009،ص112)، بمعنى أن أفكار الناس هي مجرد ذرائع يستعين بها الإنسان لحفظ بقائه ثم البحث عن الكمال.

كذلك ارتبطت البراجماتية في أحد معانيها بنظرية النفع حيث ذهب أتباع المذهب العملي إلى أن الحكم يكون صادقاً متى دلت التجربة على أنه مفيد عقلياً وعملياً ، أي أن المقياس الحق هو المنفعة . فالبراجماتية ترى أن الشيء النافع أو المفيد بطريقة عملية : هو الشيء الحقيقي والذي يجب وضعه في الاعتبار ، وأن ما يوصف بالحقيقي هو ما يمكن أن يساهم في جعل أكثرية البشر في وضع جيد .

نخلُص مما سبق أن البراجماتية عبارة عن منهج يتم من خلاله تقييم الأفعال أو الأفكار بمدى فائدتها أو نفعها أو صدقها ومطابقتها للواقع ، وأن أي فكرة لا ينتج عنها سلوك عملي له فائدة تعد فكرة باطلة لا معنى لها ، على أنه يجب على العقل ألا يرتكز على مقدمات الأفكار بل يرتكز على النتائج المترتبة على الأفكار ، وتوجيه الفكر نحو المستقبل بدلاً من النظر إلى الماضي ، وبالتالي هي لا تسأل عن كيفية نشأة المعرفة أو الأفكار بقدر ما تسأل عن النتائج التي تترتب على تلك الأفكار.

ولذلك تدحض البراجماتية كل ما هو نظري عقلي مجرد يهدف للكشف عن حقيقة نظرية تقتصر على المعرفة والأفكار المجردة، فالأفكار عند البرجماتية لا قيمة لها إلا متى تحولت إلى أفعال تؤدي إلى إعادة تنظيم العالم الذي نعيش فيه ، ومن ثم فإن محل صدقها هو التجربة (راشوان، 1992،ص46).

ثانياً: التطور التاريخي لمصطلح البرجماتية:

بدراسة تاريخ الفكر الفلسفي نجد أن الأسس أو المبادئ التي قامت عليها الفلسفة البراجماتية لها جذور تاريخية تمتد إلى أعماق التاريخ الفلسفي بداية من الفلسفة اليونانية القديمة إلى تأثرها بالفلسفات والنظريات الحديثة.ففي الفلسفة اليونانية نلتمس جذور للبرجماتية عند الفيلسوف " هرقليطس " (535ق.م ـ475ق.م) Heractitus الذي أكد على عدم وجود حقائق مطلقة أو ثابتة من خلال فلسفة التغير الذي

دعا إليها ولذلك فالحقائق عنده نسبية ، كما أن المدرس الخطيب الروماني "كونتليان" اعتبر الممارسة العملية هي الأساس في التعليم (جعنيني، 2004، ص185).

وعند السوفسطائيين Sophists بداية الفترة الإنسانية في مرحلة نشأة الفلسفة اليونانية نجد الاهتمام بالنظر إلى الإنسان بدلاً من الطبيعة ، وهي تعتبر خير ممثلاً لذلك لأنها فلسفة اهتمت بالجانب العملي الإنساني ، والمحور الأساسي الذي تقوم عليه هذه الفلسفة هو : الإنسان وكل ما له علاقة به ، كما نادى أحد فلاسفتها وهو " بروتاغوراس "(489ق.م -411ق.م) Protagoras بمقولة مشهورة نشرها في كتابه " الحقيقة " وهي أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، فهو مقياس وجود ما يوجد ومقياس لا وجود ما لا يوجد (كرم، 1936، ص59).

فالمعرفة السوفسطائية تبنى على الإحساس فهو مصدرها الوحيد ، لذلك فالخبرة الحسية تختلف من فرد إلى فرد أخر حتى توصلوا إلى أن الواقع ما يبدو عليه الفرد ، وأن المعرفة ناتجة من خبرات حسية قولاً وفعلاً فالفرد مقياس النفع والضر.

ونلتمس هنا أن السوفسطائية كانت تدعو إلى الفردية ، وهذا ما تدعوا إليه البراجماتية إلى حد ما والتي كان الإنسان موضوعها ، والبحث عن فائدته ومصلحته هو غايتها .

أما "سقراط"(470ق.م -399ق.م) Socrates يُعد من أوائل الفلاسفة الذين يرتبط لديهم القول بالعمل في أفكارهم فلقد كان عرضه للمعرفة يتم بذلك وفقاً لغايات عملية فجعل نظريته في المعرفة مرتبطة بالممارسة العملية فأراد أن يعرف الفضيلة لا لشيء سوى ممارسته الفضيلة في

الحياة ، فالمعرفة هي أسمى الفضائل المتعادلة في نفعها عند سقراط (الكيلاني، 2002،ص330) ، وهنا يظهر بالدرجة الأولى الأثر العملي في فلسفته لأنه كان يسلم بمبدأ الغايات والتي ربطها بالفضيلة .

وتتجلى جذور البراجماتية في فلسفة "أرسطو" (384ق.م - 322ق.م)Aristotles عند تقسيمه للعلوم الفلسفية إلى قسمين: علوم نظرية وعلوم عملية ، فالعلوم النظرية علوم تهدف إلى غاية وهي الحقيقة لذاتها دون تحقيق منفعة عملية ، أما العلوم العملية فهي التي تستهدف المنفعة العملية ، فالهدف العملي لأرسطو الخاص بنوع الحقيقة التي نبحث عنها في ميدان الأخلاق والسياسة: هو أنه يحذرنا من

انتظار قواعد للسلوك لها نفس طابع الكُلية والثبات الذي لدى حقائق العلم النظري ، ولذلك فهو يعتبر العمل نشاط من أنشطة التفكير ، ولكنه لا يكتفي بمحض التفكير ، ففي العمل يتجه تفكيرنا نحو إنتاج نتيجة أو أخرى وليس نحو إنتاج التفكير الصادق (تايلور، 1992،ص107).

أما المدرسة الأبيقورية فتعود فيها البراجماتية إلى قول الأبيقوريين بأن إحساساتنا ومفاهيمنا العقلية ومشاعرنا ما هي إلا مقياس لكل الحقائق . فالمعرفة عند الأبيقورية تعتمد على الإحساس ، ومصادر الحقائق مستمدة من مدركاتنا الحسية ، وهذه المدركات مبنية على إحساسات مخزنة في الذهن (فخري، 1991،ص166) ، ويرى "ابيقور" (341 ق.م -270 ق.م) Epicurus مؤسس المدرسة الأبيقورية إلى أن تحصيل المعرفة الصحيحة بأسباب الأشياء هو من اختصاص العلم الطبيعي ، وأن السعادة تتوقف على هذه المعرفة وما يلحق بها من آثار ، وهذا ما يدل على أن جوهر فلسفته كانت عملية .

فقد كان "أبيقور " يدعو الناس إلى حياة اللذة السهلة ، فالإحساسات كلها صادقة على السواء وغاية الحياة هي اللذة ، ومتى تقرر أن اللذة غاية لزم أن تكون الوسيلة إليها فضيلة.

وأن العقل والعلم والحكمة تقوم على تدبير الوسائل وتوجيهها إلى الغاية المنشودة، ولذا نرى أن الأبيقورية اتفقت مع البراجماتية في تحقيق مبدأ النفعية بانتهاج الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق اللذة ،وحصر كلاهما المنفعة في مبدأ اللذة .لكونها ثمار العمل أو الفكر العملي.

أما المدرسة " الرواقية " Stoicism فتتفق مع البراجماتية في اعتمادها الحق أساساً لكل المعارف ، كما أن الجانب العملي الذي تنادي به البراجماتية فيظهر عند الرواقية في فكرة الأخوة العالمية التي دعت إليها حيث اعتبرت الرواقية الإنسانية أسرة واحدة أعضاؤها أفراد البشر عامة أياً كانت أشكالهم وألسنتهم ومذاهبهم وأعرافهم متأثرين بأرسطو في مقولته: بأن لما كان الإنسان حيواناً اجتماعياً أي يميل بطبيعته إلى الاجتماع وجب على البشر أن يؤلفوا مملكة العقل ، وهي تضم أفراد الإنسانية جميعاً (غلاب، 1963،ص247).

وهذه الفكرة المقتبسة من أرسطو طبقها الإسكندر الأكبر إبان حكمه للإمبراطورية الرومانية ، ووضعتها الرواقية في قالب فلسفي تحت إطار نفعي لبناء المجتمع .

أما في العصر الحديث نجد المدرسة التجريبية من أكثر الفلسفات التي تأثرت بها البراجماتية ومن أبرز فلاسفتها "جون لوك "1704 م ـ 1832 م) J.Locke و"ديفيد هيوم"(1711 م ـ1776 م) D.Hume اللذان يؤكدان على أن المعرفة مصدرها الحواس (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، 1989،ص60)، ويتمثل وجه الاتفاق بين البراجماتية وبين التجريبية الإنجليزية في الاعتماد على الواقع الخارجي والركون إليه كما يتبدى في خبراتنا الحسية، فالبراجماتية فلسفة قائمة على التجريب ، ولذلك أطلق البراجماتيون على "جون لوك" الأب الحقيقي للبراجماتية وأعلنوا انتمائهم لهذه المدرسة إلا أن الجديد في الفلسفة البراجماتية هو أنها استبدلت النظر إلى الماضي بالنظر إلى المستقبل.

لذلك انصب اهتمام البراجماتية على ربط معارفنا بعالم التجربة لا من حيث النشأة أو الأصل بل من حيث النتائج ، فكل ما فيها يترتب على ما تحدثه التجربة من آثار أو نتائج أو منفعة فهي تبحث فيما وراء التجربة .لا فيما يخص التجربة المدركة إدراك مباشر فقط.

كذلك تأثرت البراجماتية بالفلسفة النفعية في انجلترا على يد "أدم سميث"(1723م ـ 1790م) A.Smith ثم تطورت على يد "جيرمن بنتام" (1748م ـ1832م) J.Bentham ممثل

المذهب الحسي في كتابه " تمهيد لمبادئ التشريع ، والأخلاق" ، والذي شرح فيه أساس مذهبه ، فهو ينطلق من الاهتمام التجريبي بكل فرد على أساس من الطبيعة قد وضعت الإنسان تحت سيطرة مبدأين هما "اللذة والألم" ، وأن البحث عن المنفعة هو الغاية التي يسعى الإنسان لتحقيقها (بدوي، 1984،ص86)

والمنفعة عندهم : هي القدرة الكافية على إنتاج ربح أو نفع أو لذة أو سعادة في غرض معين ، وعليه فالمنفعة بمثابة الوسيلة أو الآلة التي تنتج لنا عملاً أو فعلاً مهما كانت طبيعته ، فوظيفتها عملية غايتها في نتائجها ، وهذا ما تتفق فيه مع الفلسفة البراجماتية التي تبحث عن المنفعة والفائدة العملية من وراء الأفكار والمعارف والقيم.

كذلك تأثرت البراجماتية بالفيلسوف "كانط" Kant ولكنها رفضت مسلماته حول العقل العملي وحولت العقل من المجال الأخلاقي إلى المجال العقلي، وكذلك كان لجون ستيورات مل أثر على البرجماتية الذي قال عنه أحد روادها بأنه يتصوره كقائد لهم لوكان حياً.

ومن أهم النظريات العلمية التي أثرت على البراجماتية هي النظرية التطورية والتي وضعها "تشارلز دارون"(1809 م -1882 م) Ch.Darwin في كتابه "أصل الأنواع" ،والتي وجد فيها أن الأنواع متشابهة تشابهاً عميقاً من حيث بنية الجسم وتتفرع إلى أصنافاً عديدة ويمتاز كل صنف منها بفوارق ملائمة ببيئته وجعلت صفة الفرضية الدارونية الفرد كائناً يصارع الطبيعة من أجل البقاء ، ويسعى إلى استخدام طاقاته وإمكاناته البيولوجية ليبقى على قيد الحياة معتمداً في ذلك على المعرفة التي اكتسبها من خلال تجربته الذاتية أثناء هذا الصراع (جعنيني ن.، 2004،ص187).

لقد ساهمت النظرية التطورية لدارون في دعم أفكار البراجماتية حين بينت أن جميع الكائنات الحية تعيش في صراع من أجل البقاء ، وأن البقاء للأصلح ، وكل تقدم في هذا الصراع يعود بالفائدة على الإنسان ، وأن حياة الإنسان لكي تستمر لابد لها من التكيف مع البيئة ، وهذا التكيف يتطلب تغيراً في الكائن الحي وبيئته ، وكلما ارتقى الإنسان ازداد قدرة على تغيير البيئة لسد احتياجاته البيولوجية والنفسية.

المبحث الثاني: البراجماتية المعاصرة الأمريكية وروادها.

ظهرت البراجماتية المعاصرة في الولايات المتحدة الأمريكية متسقة ومتوافقة مع أسلوب الحياة الأمريكية نفسه، وتأسست كمذهب عملي وأخذت صيغتها الواضحة والمؤثرة في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر.

ولقد لعب المجتمع الأمريكي دور مهم في تشكيل الفكر الفلسفي الأمريكي,وذلك يرجع لتركيبة هذا المجتمع , والذي كان عبارة عن نسيج مختلف من عدة خامات من أنحاء العالم,حيث تشكلت أمة جديدة في أمريكا من المهاجرين الباحثين عن الثروة والحرية , والهاربين من الظلم والاضطهاد في بلدانهم ،قدموا إليها حاملين معهم أفكارهم ومعتقداتهم ومذاهبهم ، كل ذلك لعب دوراً بارزاً في تشكيل الفكر الأمريكي (حامد، 1995،ص40).

وكانت السمة الغالبة والمتأصلة في هذا المجتمع هي التحرر من القيود وحب المغامرة والاكتشاف واستخدام العقل واحترام العمل اليدوي والتطلع إلى التغيير والتجديد وإلى المستقبل

باستمرار ، فلقد آمن هذا الفكر بتحسين ظروف الحياة من خلال العزم على العمل الذي يقوده العقل ، وأن التفكير مرتبط بالعمل ، ويتطور من خلاله ، والنظريات ما هي إلا مُوجه للعمل تُمتحن من خلال ما ينتج عنها من خلال الواقع العملي للحياة، كل ذلك شكل إطاراً تاريخياً للفكر البرجماتي المعاصر ، الذي كان متمثل في الواقع الأمريكي كخير مثال.

وبتتبع تاريخ الفكر الفلسفي في الولايات المتحدة نجد أن الفكر في نهاية القرن التاسع عشر لم يكن مهتماً بالمذهب التجريبي إلا قليلاً ، وكان التيار المثالي هو السائد آنذاك ، ولذلك ظهرت البراجماتية كرد فعل لموجات الفلسفة المثالية التي كانت طاغية على الفكر الأمريكي آنذاك والتي جاءت إليه من أوروبا وعلى وجه التحديد من ألمانيا وتبناها أساتذة متخصصين في الدراسات الفلسفية الذين دعموها بالحُجة المنطقية والاستدلال العقلي ومن أبرزهم "جوزيا رويس"J.Roece(1855-1916) (محمود، د.ت،ص ص32-33)

تبلورت فكرة البراجماتية في إحدى نوادي مدينة "كمبريدج" من خلال مناقشة مجموعة من شباب جامعة "هارفرد" يهتمون بالفلسفة والعلم كانوا مثابرين على مناقشة الفلسفة والأخلاق والسياسة ، وشتى القضايا العلمية، وقد كان القاسم المشترك لهذه المجموعة الصغيرة هو موقفاً معادياً تجاه بعض مباحث الفلسفة التقليدية وخصوصاً الميتافيزيقا.

لذلك شعرت تلك المجموعة بضرورة التوجه إلى الفعل نحو المستقبل وما يستتبع ذلك من مسئولية كبيرة لابد أن يحملوها على عاتقهم لتقليص الموجة المثالية التي طغت على مجتمعهم ، وكانوا يوجهون نشاطاتهم الفلسفية لانتقادها ، مجتمعين في ذلك على رباط واحد وهو الإيمان بالمنهج العلمي التجريبي لكونه منهج التفكير السليم ، وأطلقوا على النادي اسم "النادي الميتافيزيقي" وكانت هذه نوع من السخرية على الميتافيزيقا لتوضيح مدى نفور هذه الجماعة من الموجة المثالية الميتافيزيقية الماثلة في المجتمع .

إما فيما يخص رواد التيار البرجماتي المعاصر فهم ثلاثة: "تشارلز بيرس" ، "وليم جيمس" ، و"جون ديوي" ، وإن كانوا اتفقوا على أن مهمة الفلسفة ليست تغيير العالم بقدر ما هي تشييده والعمل على خلق عالم جديد من خلال فلسفة أكثر عملية وارتباطاً بالواقع كما أنها معنية بالنتائج أكثر من الأشياء والوقائع ، وبالرغم من هذا الاتفاق إلا أن لكل واحد لون يميز فلسفته عن غيره؛لكنهم جميعاً يجمعهم المبدأ البرجماتي العملي.

1ـ تشارلز بيرس :- **(1914-1839)Ch.Pires**

يُعد تشارلز بيرس المؤسس الحقيقي للفلسفة البراجماتية، كمنهج وليس كمذهب ينطوي على نظريات ،فقد عَرَّف بيرس البراجماتية عندما قدم بحث إلى النادي الميتافيزيقي نُشر فيما بعد في صورة مقالين بعنوان " تثبيت الاعتقاد وكيف نوضح أفكارنا " ، وتساءل فيهما عن معنى الفكرة ، متى يكون للفكرة معنى ؟، ومعنى العبارة ، قائلاً متى يكون للعبارة فكرة ، وانتهى إلى أن الفكرة هي ما تعمله ،فأحدث بذلك انقلاباً على ما سبق من نظريات، وصاغ كلمة "براجماتيزم" لتدل على العمل والفعل أي أن معناها يرتبط بنتائجها وآثارها العملية المترتبة عليها (اسلام، 1980،ص94).

ولقد عَرَّف بيرس البراجماتيزم من دراسته للفيلسوف كأنط في كتابه " ميتافيزيقيا الأخلاق " ، الذي ميز فيه بين ما هو براجماتي وبين ما هو عملي . فالبراجماتي : يشير إلى قواعد الفن وأسلوب التناول المعتمد على الخبرة ، والعملي : هو قوانين العملية الأخلاقية.

تأثر بيرس بهذه النظرية التي تجعل العمل والأخلاق فوق النظر أو المعرفة فتكون لديه أصول رأيه في أن المعاني أو الحقائق الميتافيزيقية والتي قضى كانط باستحالة معرفتها بالعقل النظري يمكن أن تحل إمكان معرفتها إذا ما واجهناها على أساس أثر نتائجها العملية في حياتنا لا على أساس مطابقتها لأشياء موجودة خارجاً عنها ، لذا رأى بيرس أن إنقاذ الحقائق الميتافيزيقية يتطلب العدول عن النظرية التقليدية القائلة بمطابقة المعاني لمدلولات خارجية والأخذ بوجهة نظر جديدة مؤداها أن كل معنى من المعاني في الذهن إنما يوزن بما يترتب على النتائج العملية.

فإذا كانت هذه النتائج عملية مؤدية إلى فروق في سلوكنا وحياتنا فإن مجموع هذه النتائج هو المضمون الموضوعي لذلك المعنى ، أي مدلوله الخارجي ، وهذا المدلول ليس وجوداً وإنما هو مجموعة تلك الآثار العملية التي تقودنا إلى المعنى وتوضحه في ذهننا، لذلك وصف بيرس مذهبه أنه نظرية في توضيح وتعريف المعاني (الفندي، 1980،ص188)

وضع بيرس كلمة " براجماتية " اسم لقاعدة خاصة لتوضيح معاني الكلمات ، ولم يتخذها موقف فلسفي كامل ، لأن البراجماتية عنده أصبحت تطلق علي أي موقف يؤكد على أهمية النتائج لاختبار صلاحية الأفكار ، وهذا ما لم يكن قصده في بادئ الأمر. فدفعه ذلك إلي تغيير هذا المصطلح فكتب قائلاً (إنه

لكي يخدم الغرض الدقيق الذي من أجله صاغ مصطلحه الأصلي فإنه يعني مولد كلمة أخرى " البراجماطيقية ") وأراد أن تكون كلمة واضحة لا لبس فيها ولا غموض وتكون على درجة من الغلظة والقبح ما يمنع شيوعها.

وتدور فلسفة بيرس في مشكلتين أساسيتين : يمثلان مفهوم الفلسفة البراجماتية وهما : " مشكلة المعنى، ومشكلة الاعتقاد " . فمشكلة المعنى : يوضح بيرس من خلالها أن أية فكرة تكون دائماً مرتبطة بالانطباعات الحسية التي ندركها ، أما مشكلة الاعتقاد فقد آمن بيرس بأن الاعتقاد يشكل قاعدة للسلوك في مقابل الشك ، وهو عبارة عن تَكَون عادة يشعر بها الإنسان.

وينتج عنها سلوك مطابق للاعتقاد ، ولذا تكون علاقة الحقيقة أو معيارها هو العمل المنتج لا الحكم العقلي ، فالعمل هو المحك الوحيد الذي يميز المعتقدات مما يلزم عن ذلك أن العالم مرن يستطيع التأثير فيه وتشكيله ، وأن تصورات الإنسان فروض أو وسائل لهذا التأثير أو التشكيل (الشرقاوي، 1990،ص174).

2ـ وليم جيمس :ـ (1842-1910)W.James

يعتبر وليم جيمس أكبر دعاة البراجماتية في أمريكا والذي ساهم في تعريفها ، ونشر أفكارها على نطاق أوسع وهي تعني عنده المزاولة أو العملي ، ولذا نجده يتفق مع بيرس في رد المعرفة إلى ما يترتب عليها من نتائج عملية ، إلا أنه يختلف عنه في أن المعرفة تكون عامة،و يمكن لأي إنسان أن يشاهد نتائجها العملية في حين يرى جيمس أن المعرفة أقرب ما تكون نسبية تعتمد على ما يدركه الشخص الواحد من نتائج ، لذا فهي تعتبر معرفة ذاتية . كما أضاف جميس على نظرية بيرس .أن كل عقيدة تؤدي إلي نتيجة مرضية تعتبر عقيدة حقيقية؛ فليست الفكرة مشروعاً للعمل فقط ، وإنما العمل والنتائج هو الدليل على صحة الفكرة.

وتمثل البراجماتية عن جيمس الاتجاه التجريبي ، ولكنه يرى أن البراجماتية اسم جديد لطرائق قديمة في التفكير، ووجه الاتفاق بين البراجماتية والتجريبية الإنجليزية هو الاعتماد على الواقع الخارجي كما يتبدى في خبراتنا الحسية ، وإن كان جيمس يرى أنها أكثر تطرفاً وأقل تعرضاً للنقد.

لذا طَبَّع جيمس البراجماتية المعاصرة بطابع المنفعة ، وكان يتعامل مع صدقية الأفكار من منطلق القيمة الفورية ، ومن ذلك توصل إلى تعريف جديد للحقيقة ، وهو أن الحقيقة هي القيمة الفورية للفكر ، وحدد معنى البراجماتية من حيث هي منهج فلسفي ، ومن حيث طريقة وأسلوب في التوضيح ، ومن حيث هي نظرية في الصدق. وتبعاً لذلك فالأفكار وفقاً لمنهج جيمس لا تتجاوز أن تكون وسائل فعالة لمواجهة ضرورات الحياة ومطالبها ، فالفكرة لا تكون صادقة أو كاذبة إلا قدر صلاحيتها أو عدم صلاحيتها أو أنها تؤدي بنا إلى النتائج المرغوبة والمرجوة ، وبالتالي يتبين لنا أن حقيقة أي فكرة يتوقف على رغباتنا وقيمتها تقاس بما تحققه لنا من منفعة (الشنيطي، 1998،ص86).

أما فيما يتعلق بالفكر الديني عند جيمس فهو يعني الشعور أو العاطفة الدينية ، فليست العبرة بالطقوس ولا بالفرائض بل بالديانة الشخصية .فالدين عند جيمس أمر شخصي في جوهره ، وجوهر الإيمان هو الوجدان والإرادة عند الإنسان ، لذا كان جيمس يرى أنه ليس المهم أن يعرف الإنسان الأسس النظرية التي تقوم عليها عقائده بل من المهم أن يقف على ثماره ونتائجه .فالحكم على التجربة الدينية لا يتم إلا بالنظر إلى نتائجها.لذلك كانت المنفعة العملية لا تقتصر على العمل المجتمعي فقط بل على الفكر الديني أيضا

إلى جانب ذلك استطاع وليم جيمس أن يُقيم البرهان على أن الاعتقاد في الله اعتقاد يُقره المنهج البراجماتي لأن الاعتقاد بالله يحقق لدى المؤمن قدراً عظيماً من الراحة والسكينة والطمأنينة ، ومن ثم فالتفاؤل مفقود لدى غير المؤمنين .

ومن هنا يتبين لنا أن جيمس ميز بين الفكرة التي تحقق الآثار العملية المباشرة أي تحقق المنفعة المادية الملموسة مباشرة وبين الفكرة التي تحقق نفس الآثار العملية بطريقة غير مباشرة ، والإيمان من الأفكار التي يحقق آثارها العملية بطريقة غير مباشرة (النشار، 1998،ص168) فقيمة الدين وفقاً لمنهجه العملي يستمدها من ظاهرة الحياة الدينية .

ونَخلُص مما سبق أن براجماتية جيمس توصف بأنها أكثر توسعاً في التجريبية مع فارق أساسي وهو أنها لا تركز غايتها في ظواهر سابقة بل في ظواهر لاحقة ، بمعنى أنها لا تركز عنايتها في ممكنات العمل ، وهذا ما يخص الاتفاق ، أما عن ناحية الاختلاف فإنها متعلقة بطبيعة فهم جيمس للبراجماتية.

3- جون ديوي : (1952-1859)J.Dewey

فسر ديوي الفلسفة البراجماتية تفسيراً غاية في الدقة والوضوح ، فقد اتخذت البراجماتية عنده صبغة خاصة لأنه ربط ما بين أفكار ونظريات وليم جيمس ، وبين المادية العلمية، فقد سبق لاحظنا أن براجماتية بيرس ذات صبغة دينية ، أما ديوي اتجه إلى العلوم اتجاهاً كاملاً ، فأقر بنظرية واطسون السلوكية القائلة بأن العقل ليس سوى نتاج الجسم ، وذهب إلى أن لا وجود لمعرفة حقيقية خارج المعرفة الناشئة عن فهم العلوم الطبيعية (يوفنيسكي، 1389هـ،صص191-192).

كان ذلك نتيجة تأثره بالفلسفة " الهيجيلية " ، التي استفادت نزعته التجريبية منها دروساً هامة في فهم الطبيعة ، وفطن إلى أن مهمة العقل البشري تنحصر في ضمان الانتقال من الشكل الواحد إلى غيره من الأشكال. كما تأثر ديوي بالنظرية التطورية ، وقبلها قبولاً لا غموض فيه ، فالعقل والجسم في رأيه عضوان تطورا في التنازع على البقاء إلى شكلهما الحالي من أشكال أحط مرتبة .

كانت نقطة انطلاق نزعته التجريبية الخبرة العامة ، واعتقد ديوي أن على الفلسفة أن تواجه شتى المشكلات بدلاً من التجربة العادية ، فمشكلة الفلسفة في رأيه تتمثل في اختلاط أبحاثها بالأبحاث الدينية ، وتظهر مدى تجريبيته المتطرفة حين يشكك في قيمة الدراسات الميتافيزيقية ، فهذه المشكلات الميتافيزيقية يرى ديوي أنها عقيمة لا تقبل الحل ، وهي أشباه مشكلات ، وهذه النزعة التجريبية نزعة دينامية حركية .

واتسمت فلسفته بالنظرة الواحدية الطبيعية ، لذلك بذل ديوي جهداً مضنياً ليوضح أن العقل ليس ملكة منفصلة عن التجربة ، إنما العقل باطن في الطبيعة مثل أي شيء أخر له وجوده ودلالته في صميم التجربة ، فالخبرة عنده دائماً هي خبرة بالطبيعة ، وهي تفاعل حيوي بين الكائن وبيئته ، ولذلك كان دائماً يحاول البحث عن بذور شتى الخبرات البشرية في صميم التفاعل الذي يتم بين الموجود البشري وبيئته (ابراهيم، 1968،ص63)

أما التجربة عند ديوي فتثبت أن كل شيء متغير ولا وجود للثبات سواء في مجال المادة أو الذات ، وليس الفكر في حد ذاته سوى أداة من أدوات العمل ، إذ أن الإنسان لا يشرع في التفكير إلا إذا أعاقته موانع مادية لابد له من التغلب عليها.

وجاء استخدام لفظ " أدواتيه " للدلالة على ما يسميه الرواية المنطقية للبراجماتية ، ويفضل أن يسمى براجماتيته " أدواتية " : وهي أن الأفكار بمثابة أدوات تنجز بها بعض النتائج المرغوب بها والتي تساعد على أن نعمل شيئاً أو نفعله على أفضل أو أكثر ذكاء .

فالأفكار لن تكون حقيقية إلا إذا كانت أدوات نستعين بها في حل المشاكل ، والفكرة هي مجرد وظيفة ابتدعتها التجربة لخدمتها ، وأن قيمة أي فكرة محصورة فقط في مدى ما تحققه من نجاح (بدوي، مدخل جديد الى الفلسفة ، 1975،ص148)

ونتيجة لما سبق يتبين لنا : أن هؤلاء الرموز الثلاثة للبراجماتية ، وإن اتفقوا على أصول البراجماتية ، وعلى أن يجعلوا أي فكرة أو معتقد ذات معنى هو كونها ذات نتائج عملية ملموسة تترتب على تنفيذها ، إلا أن كل واحدمنهم كان له فلسفته الخاصة ذات الطابع المغاير، فبيرس نظر للفكرة في البراجماتية باعتبارها معنى الفكرة الصادقة التي يكون لها نتائج عملية مفيدة ، أما جيمس فقد أضاف إلى ذلك معنى أو طابع نفعي للبراجماتية فتعامل مع صدقية الأفكار من منطلق القيمة الفورية العملية المتمثلة في النتيجة النفعية.

أما فيما يخص صدق الفكرة فإن بيرس ينظر إلى صدقها من خلال النتائج المباشرة التي يمكن أن تتحقق عن طريق التجربة ، بينما جيمس ينظر إلى صدقها من خلال النتائج الغير مباشرة ، ويُدخل في نطاق كلمة نتائج الآثار الوجدانية والغايات العملية ، بينما جون ديوي فقد أدخل الوسيلة الأدائية في مفهوم البراجماتية ، حيث جعل المعرفة أداة ووسيلة للتجربة ، فالفكرة أداة فعل لديه ، لأنه من غير الممكن البحث عن أسباب الأعمال خارج نطاق التجربة ، لذا ينبغي رفض كل الأفكار التي تتعالى على الطبيعة والاتجاه إلى الخبرة.

مجمل ما سبق يتعلق أنفاً يشكل سمات الفكر البراجماتي المتمثل في فكر رواده (بيرس ، وجيمس ، وديوي) ، وعلى الرغم من ذلك تعرض لعدة انتقادات كانت سبباً في تصدع فكره النفعي المعاصر؛لذا ألزم علينا إظهار تلك التصدعات السلبية والإيجابية منها.

المبحث الثالث: انتقادات الفكر البرجماتي :-

تعرضت الفلسفة البراجماتية إلى الكثير من النقد الذي وجه إليها من فلاسفة وكتاب معاصرين ، وقبل أن نعرض هذه الآراء لابد لنا من وقفة مع أهم المبادئ التي نادت بها البراجماتية ثم نلحقها بالنقد الذي وجه إليها .

1- قطع الصلة مع الماضي :-

إن أول وأهم مبدأ تقوم عليه البراجماتية هو عدم اهتمامها بالماضي ، فهي لا تسأل عن كيفية نشوء الأشياء أو عن مصدر الأفكار ، بل تبحث عن نتائجها العملية التي يمكن أن تقود إلى تغير الواقع نحو الأفضل ، فهي تبحث عن قطيعة مع الماضي ، وترفض البحث في المبادئ الأولية وكل أشكال المطلق (بوترو، 1973،ص347).

لذلك نجد أُلزم البراجماتي أن يحول النظر بعيداً عن المبادئ والحتميات المسلم بها ، وأن يوجه نظره إلى الأشياء الأخيرة والثمرات ، وبالتالي فهدفه هو المستقبل وليس الماضي باعتباره أسلوب جديد في التفكير يتجاوز كل ما له علاقة بالماضي ، ولهذا نجده تساند كل ما هو مبتكر وعصري، وهذه القطيعة للماضي جاءت نتيجة لإنكاره المعرفة القبلية ، ولذلك يرى في المستقبل والتجريب أساساً للمعرفة .

إلا أن على الرغم من أنهم ينادون بعدم النظر أو الإحكام بالماضي إلا أنهم ينطلقوا في أفكارهم من فلسفات قديمة نادى بها كبار الفلاسفة ، وبذلك فهي تناقض نفسها في البعد عن الماضي والادعاء بالجدَّة والحداثة ، وفي نفس الوقت تكرر أقوال فلاسفة قدامى ، وتبنى آرائهم مما يؤكد أنها في حقيقتها تميل إلى رأي الرواقية القديمة التي ينادي مؤسسها بالعيش وفقاً للطبيعة (غلاب، الفلسفة الاغريقية، 1938،ص245).وفي هذا الرأي بعض الوجاهة بأنه كيف لها أن تدعي بعدم الاهتمام بالماضي وقطع الصلة به وهي في أساسها مستمدة من فلسفات سابقة عليها .

2- المعرفة النفعية :- ارتبطت المعرفة عند البراجماتية بالتجربة والنفع حيث ترى أن المعرفة يجب أن تكون ذات فائدة عملية بمعنى أنها تدعو إلى تحويل الأنشطة التأملية النظرية إلى أنشطة فعالة عملية ،

وأنه على العقل ألا ينشغل في البحث عن حقائق الأشياء ، وطبائع الموجودات إلا متى حقق البحث نفعاً ، وتكون هذه المنفعة نابعة من الخبرة المباشرة ، وتتضمن فروضاً قابلة للتجريب (عبدالنظير ، 2011،صص26-27) انظر (الخوالدة، 2013،ص109).

فالبراجماتية في ذلك تتوخى أن تدخل في الفلسفة المنهج التجريبي للتحقق العقلي الواقعي في كل نظرية وتُعد البراجماتية في طبيعة المعرفة فلسفة تجريبية . تعتمد على الحس في الوصول إلى المعرفة ، وهي امتداد للتجريبية القديمة ، ولكنها امتازت عنها في الربط بين الأفكار والنتائج المترتبة عليها ، ولم تقف عند التجربة فقط بل جعلت الفكرة صحيحة بقدر ما تحقق من نفع ورضا .

فالمعرفة أداة ووسيلة للاستفادة من الواقع ، والتجربة النافعة هي المصدر الأول للمعرفة البرجماتية ، وإن عجزت عن ذلك فهناك مصدر أخر يقول به بيرس وهو الحس المشترك ، والفهم المشترك عند جيمس الذي كان يرى أنه يأخذ بها لأنها نافعة لنا تخدمنا في أغراضنا العملية (اسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، 1980،ص86).فالأفكار عندهم لا تعدو أن تكون وسائل فعالة لمواجهة ضرورات الحياة ومطالبها ، وهذه الأفكار بمثابة المثير أو المحرض للعقل الإنساني .

ونُخلص مما سبق أن معيار صحة المعرفة هي المنفعة العملية تؤدي إلى تنظيم العالم ، وجعل العالم أفضل مما هو عليه الآن ، وهنا نرى أن هذه النظرة للبراجماتية ناتجة من تأثر هؤلاء البراجماتيون ببيئتهم وواقعهم الاجتماعي المعاشي، لذلك كانت البراجماتية خير معبر عن الواقع الأمريكي ، لاعتمادهم على التجربة ، وتأكيدهم عليها في الحكم على مدى نفع المعرفة ، الناتج من اعتمادهم على منهجهم العلمي العملي ،وهنا يستوقفنا سؤال .أي تجربة يقصدها البراجماتيون؟ وفي تحرينا للإجابة نجد إن ما يقصده البراجماتيون هو التجربة الشخصية العلمية التي هدفها العلم ، فالمعرفة التي لا تعود إلى نتائج لا يمكن اعتبارها معرفة صالحة ، وبذلك طرحت البراجماتية تعريفاً جديداً للمعرفة ، ورسمت مساراً جديداً فلم تجعل طبيعة المعرفة أسبقية الفكر على الوجود كما رأت المثالية أو كما رأته الواقعية مجرد تصوير للواقع ؛ بل جعلتها أداة للسلوك العملي ، ولكنها ظلت معرفة نسبية (النشار، مدخل جديد الى الفلسفة، 1998،ص167) انظر (الاسدي، 2014،ص125)

وبناءً عن هذه الأراء نجد الدكتور زكي نجيب محمود(1905 – 1993) يوجه نقداً للمعرفة البرجماتية في كتابه " نظرية المعرفة "قائلاً : " إن هذه النظرية لا تخلو من أوجه النقص فليس من العسير أن نجد أمثلة من معارفنا لا تفسرها هذه النظرية تفسيراً مقبولاً، وأننا لو جمعنا حسن النتائج المترتبة على الفكرة هو مقياس صدقها لوجدنا عبارات مقطوعة ببطلان صحتها على هذا المقياس ، أن الصواب والخطأ كثيراً من الأحيان يتقرران قبل تتبع نتائج الفكرة لمعرفة نفعها أو ضررها (محمود، نظرية المعرفة ، 1956،ص30) ولو كان عامل النفع العملي وحده هو المقياس الصواب بل مقياس معنى الفكرة وقابليتها للفهم كما يرى البراجماتيون لكان صواب فكرة من أفكارنا متوقفاً إلى حد كبير على قانون العقوبات ، ونوع الحكومة القائمة ، وأمزجة أصحاب السلطة ".

2ـ الحقيقة الواقعية النسبية :– هي وليدة تفاعل الإنسان مع بيئته ، ولذا فالإنسان والبيئة مسئولون عن الحقيقة ، وذلك نتيجة لارتباط الإنسان ببيئته ، فتصبح البيئة هي المصدر الأساسي للمعرفة ، ورأت البراجماتية أن تعريف الحقيقة بأنها التطابق الواقع لا يحسب حساباً لطابع الفكر الجوهري إذ يجعل من الفكر مجرد نسخة من الواقع ، وقدمت تعريفاً للحقيقة لان الحقيقة ليست مجرد علاقة جامدة ساكنة بينما الفكر في جوهره مرتبط بالفعل والعمل ، ولذا تعرف الحقيقة بواسطة نتائجها العملية وهي ليست مطابقة لتصوراتنا بل هي بكل بساطة ما يمكن أن يقدمه تصور ما من نفع فالحق هو ما يفيد (بدوي، مدخل جديد الى الفلسفة، 1975،ص143–146).

وبذلك تربط الحقيقة بالأثر ومدى ما تحققه الآثار من نتائج عملية .ويتلخص مذهبهم في تقديم مقياس جديد لوزن الأفكار وهو الفصل بين الحق والباطل بمقدرة الفكرة على انجاز نتائج مفيدة وعملية ،وبالتالي لا توجد لديهم حقائق ثابتة يؤمنون بها تفرض على الواقع ولا في العلوم ، فالحياة في تغير مستمر ولا تقف عند حد معين ، فالحقائق عندهم نسبية . ولذلك تختلف الحقيقة ، وتكون أكثر صدقاً كلما زادت فرصة استخدامها واتسع نطاق هذا الاستخدام، وذلك راجع لنسبية المعرفة والتي تعود لعاملين اختلاف البيئة ، ونسبية التفاعل معها ، وحسب رأيهم أن يستمر العقل ، في تيسير حياة الإنسان وإشباع رغباته.

ويتفق البراجماتيون على الرأي القائل أن أساس المعيار في صحة الأعمال وحسنها إنما يكون من خلال النتائج المترتبة عليها ، وبالتالي تكون البراجماتية قد أخضعت كل شيء لمبدأ النفعية ، وجعلت النتيجة هي معيار الحكم الوحيد للحقيقة (ابراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، 1968،ص23)فالفكرة الصادقة الحقيقية هي التي تعمل بنجاح في تجاربنا الحياتية ، وقيمتها الثمن الذي يدفع فيها فعلاً، وهو منفعتها ، والبراجماتية أرادت من ذلك أن تصرف الناس عن البحث في أمور لا طائل منها ، وتوجههم إلى البحث فيما يعترضهم من مشكلات فعلية ، وهذا أساس منهجهم البراجماتي .فالمنفعة لا تكون نسبية وخاصة في العلم ، وأنه لو كان ذلك لقضي على العلم ، فالمنفعة تكون عامة ومطلقة حتى يتحقق العلم .

كما يفصل الدكتور زكريا إبراهيم (1924 – 1976) في النقد لنظرية الحقيقة البراجماتية في العلم حيث يقول : " أننا لا نستطيع أن نفهم كيف تطبق هذه النظرية على الحقائق العلمية ، والتي تعتبر حقائق غير شخصية لا تُقيم للأهواء الخاصة أي وزن ولا تأبه بالرغبات الشخصية " فإن جيمس بذلك يريد أن يقلب آرائنا التقليدية رأساً على عقب من خلال قوله " أننا لا نستفيد من أية فكرة لأنها حقيقية بل حقيقية لأننا نستفيد منها "وفي قوله

هذا يرى الدكتور زكريا إبراهيم قضاءً مبرماً على هذه الفكر. فالحق أذا أُريد له أن يكون حقاً لابد أن يكون مستقلاً عن ميولنا الشخصية ، وأننا إذا جعلنا غايتنا القصوى وقاعدتنا الموجهة هي خير الإنسان ومصلحته البشرية فإننا هابطون بالحقيقة إلى مستوى النفع الشخصي وهذا إفلاس للحقيقة ، وقضاء مبرم على الحق ، فالحقيقة لا تكون إلا غاية في ذاتها وليست وسيلة (الطويل، 1957،ص261).

أما جون لويس فيرى في كتابه " مدخل إلى الفلسفة " أن جيمس لا ينسف العلم فحسب ، ولكنه يلعب لعبة خاسرة مع الحقيقة ، وأن قبول نظرية واعتبارها صحيحة بدون برهان لمجرد أنها نافعة أو أنها ترضينا من ناحية ما ، هو نقيض الموقف العلمي تماماً ، إن العلم لا يتقدم إلا بنبذ مثل هذه المعتقدات في مجال العلم الحقيقي ، وأن جيمس بذلك يرفض مفهوم الحقيقة بأسره (ابراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، 1968،صص56-57)

كذلك يرى الدكتور محمد مهران رشوان (1939– 2005) في كتابه " مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة " أن الحقيقة عند البراجماتية امتداداً غير مشروع لفكرة المنفعة ، فقد كان جيمس والبراجماتيون يفخرون باتساع أُفقهم ، ولكن الحق أن هذه الروح الفضفاضة تبلغ حداً يؤدي إلى القضاء على كل معنى لكلمة نافع عندما كانوا يغرقون الحقيقة عن طريق المنفعة ، أما تطبيق البراجماتية على الحقيقة في مجال العلم بأن قضايا العلم حقيقية لأنها مفيدة دون برهان يؤيدها لمجرد أن تحقق لنا نفعاً يعتبر نسفاً للحقائق العلمية من أساسها (لويس، 1957،ص229).

وتعقيباً على ما سبق فأن الأفكار الحقة هي المفيدة فعلاً ، وأن الأفكار تكون حقيقة بتحقيقها لوظيفة مطلوبة في التجربة الإنسانية ، وما هو حق يمكن أن يتغير فعلاً حسب المصالح.

كلما تغيرت حاجاتنا ، إلا أن هذه الحاجات أو الظروف لابد وأن تمثل مصلحة عامة وليست شخصية ، فالحق قيمة مطلقة وليست نسبية وإلا فإن المجتمع سيصاب بالفوضى المدمرة لكيانه وعلاقاته مع غيره من المجتمعات .

وقد يراودنا سؤالاً يتمحور في التفسير الحقيقي وراء تمسك البرجماتية بالأفكار النفعية.وهل هذا يعني بأن منهجها ينكر الاعتقاد بالقيم الأخلاقية والدينية ؟ سنحاول من خلال عرضنا الإجابة عليه .

3ـ القيم النسبية : بما أن الإنسان معيار المعرفة تبعاً لذلك تُعد القيم في البراجماتية ليست ثابتة ولا نهائية ومرتبطة بالوجود الاجتماعي ، وهي ذات صفات واقعية ، وليست نابعة من الذات أو الضمير أو العقل .

وهي تُحدد بواسطة الاختبار والحرية ، فهي بذلك تخضع للاختبار والتعديل بحيث يطبق عليها الطريقة العلمية ، وهي إنسانية لأن الإنسان هو العنصر الفعال في جعلها بمثابة معايير وهو المكون الأساسي لهذه القيم وهو الكائن الخُلقي الوحيد في هذا العالم وليس للأشياء قيمة أخلاقية إلا باعتباره هو، ولذلك فهي متغيرة وليست مطلقة أو ثابتة ونسبية .

ويُعد موقف البراجماتية من الأخلاق هو معيار الخير أو الشر وهو نفسه مقياس الحق والباطل في مجال المعرفة وهو منفعة الإنسان.وبذلك نجد تتفق البراجماتية مع السوفسطائية في رد القيم إلى الإنسان

، ولكنها خالفتها في جعل الإنسان وليس الفرد معيار القيم ، فقصدوا بذلك التجربة الإنسانية وهي تجربة مصبغة بصبغة اجتماعية ، وصنفوا المنافع فكان منها العليا والدنيا في ضوء هذه التفرقة ميزوا قيم الأفعال وفق يترتب عليها من وجوه النفع ،والقيم في مختلف صورها تتوقف على الأغراض التي تهدف لتحقيقها ، فهي مجرد وسائل لتحقيق الغايات (رشوان، 1984،ص85)

وفي ذلك يقول الدكتور توفيق الطويل (1909م – 1991م) في تقديمه لهذه الفلسفة " أنه يكفي أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة في الأسواق قيمتها لا تقوم على ذاتها بل في الثمن الذي يدفع فيها فعلاً، فالحق كورقة نقدية تظل صالحة للتعامل حتى تثبت زيفها (محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، 1982،ص138).

فالذي يجعل العقل فضيلة هو أنه فعل ناجح والعنصر المشترك في مجموعة المواقف التي تقول عنها فضيلة أو رذيلة هو وجود الإنسان الذي يعي ما في هذه المواقف بشعوره من قيمة أخلاقية ، ولذا فالبراجماتية ترى في القيم منفعتها للشخص نفسه أي بقدر ما تحققه له القيمة من منفعة ، وهذا يجعل المجتمع غابة من الوحوش الضارية الذي يأكل بعضها بعضاً إذ تتنافس على الغلبة والتفوق وتحقيق النجاح بصرف النظر عن الهدف ويكون الهدف المنفعة وليس تحقيق أية قيمة من الفضائل الإنسانية الثابتة في ذاتها ، الأمر الذي جعل هذه الفلسفة ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة (الطويل، اسس الفلسفة، د.ت،ص259).

وهنا يتبين لنا أن البراجماتية قد ربطت بين الأخلاق والمنفعة حين خلطت بين المبادئ والأهداف وصبتها في قالب المنفعة. ومثال ذلك المعتقدات الدينية فالفكرة أو المعتقد لا يُطلب لذاته وإنما يُطلب لترقية الحياة ، وتحقيق أغراض تخدم الإنسان ، فمن حق الإنسان ألا يعتنق مبدأً خُلقياً أو معتقداً دينياً حمله عليه تفكيره النظري المجرد بل تدعوه إلى ذلك مطالب الحياة ، وقد نشر ذلك وليم جيمس في " إرادة الاعتقاد " حيث قال " أنه من حقنا أن نعتنق عقيدة لا يحملنا على اعتناقها تفكيرنا النظري المجرد" (الحجيلي،د.ت)

وعلى غرار ذلك يرى جيمس أن الاعتقاد هو أساس كل موقف فلسفي ، وأن الإيمان بعالم غير منظور ، والعقل عاجز عن البرهنة عليه ، ولكن هذا العجز لا يقرر عدم وجوده ، وما يقرر وجوده هذا

الغريزة " الوجدان " وهنا يتفق جيمس مع كانط في أن العقل عاجز عن إدراك حقيقة ما وراء عالم الحس ، والحل هو أن نأخذ بأنفع الفروض وصدق هذا يتوقف على النتائج والإرادة .

كما وجه رسل نقداً لنظرة وليم جيمس للدين فقال " أن هذا القول لا يقنع مؤمناً مخلصاً لإيمانه ، لان المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح إلى موضوع عبادته وإيمانه ، فالمؤمن لا يقول أني إذا أمنت سعدت ولكنه يقول أني أؤمن بالله ومن أجل هذا أنا سعيد ، إن الاعتقاد بوجود الله ــ سبحانه وتعالى – في نظر المؤمن الصادق مستقل عما يحتمل أن يترتب على وجوده من نتائج وأثار.ولقد رفض رسل أن يقيم معتقداته الفلسفية على أسس وجدانية ، فهو يدعو إلى تجاوز ذلك لنصل إلى فلسفة علمية قوامها حياد أخلاقي ورائدها النظر إلى الظواهر دون تأثير بمعتقداتنا البشرية ورغباتنا الوجدانية وإن كانت فكرة لم يتقبلها رسل في فلسفة جيمس وديوي هي الفكرة القائلة أن للوجدان البشري علاقة بصدق أو بطلان أية حقيقة فلسفية (الطويل، اسس الفلسفة، د.ت،ص261).

وكذلك اعترض الدكتور زكريا إبراهيم على هذه النظرة للدين في جعلها الشعور أو العاطفة روح الدين ، وكأن الروح الدينية مجرد نزعة وجدانية فحسب ، والطقوس والفرائض هي من الدين بمثابة الجسد من الروح ، فضلاً على أن جيمس قد جعل الدين مجرد عامل ذاتي تنحصر مهمته في أمدادنا لمجموعة من المشاعر ، وبالتالي فقد استبعدت هذه النظرة فكرة الموضوعية نهائياً من مجال الدين .إلا أن الإيمان بالله يتضمن الاعتقاد بوجود الإله بغض النظر عن إيماننا به ، فلابد من تكملة الإيمان الديني بطابع موضوعي يجعل منه معرفة موضوعه إلى جانب كونه شعوراً ذاتياً (ابراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، 1968،ص224).

أما الدكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم في كتابه " نقد المذاهب المعاصرة يرى " أن الإيمان بالله لا يتوقف على العاطفة وذلك لأن العاطفة والوجدان من المعروف عنها عواطف متقلبة دائماً وبالتالي فالإنسان سوف يؤمن في حالة مزاجية عاطفية وجدانية ، ويعود إلى الإلحاد عندما تتغير حالته المزاجية ، وبالطبع فالإيمان ليس كذلك فهو صرح يقوم على أسس عقائدية يؤمن بها الإنسان ويسلم بها لأنها تأتيه من الله عز وجل (ابراهيم ا.، 1999،ص119)

جميع ما سبق من مبادئ تعرضت للنقد من قبل النقاد ،وهذا يقودنا لتحليل تلك الآراء الانتقادية والوقوف عند الصواب منها ، والأقرب للبرهان اليقيني المنطقي للحقيقة.

الخاتمة

من خلال عرضنا للفلسفة البراجماتية، وتعرضها لعدة انتقادات ارتئينا توصلنا لعدة نتائج نلخصها في النقاط الآتية:ـ

1ـ أن الانتقادات في مجملها الموجهة للفلسفة البراجماتية تتفق في اعتبار أن الفكر البرجماتي جاء ليعبر عن عصره العلمي،وعن الرؤية الجديدة للعالم الناتجة عن التغير العلمي والصناعي التطوري ،الذي إلي تغير اقتصادي واجتماعي وفكري.

2ـ تميزت البراجماتية عن غيرها من الفلسفات بارتباطها بمكان نشأتها في ،وأثر الطابع البيئي في فكرها من حيث الاهتمام بالواقع الفعلي المُعاش ، فمكانة الفرد يحددها الفرد نفسه من خلال نجاحه ، وتحقيق آمال مجتمعه وتطلعاته ، الأمر الذي جعل الفيلسوف البراجماتي الأمريكي يتجه إلى الواقع العملي الإنساني المباشر .

3ـ لم تهتم البراجماتية بتفسير العالم بقدر ما تهتم بقدر ما يشيد العالم ، وهذا المنهج أسلوب جديد في التفكير اتسمت به البراجماتية لتتجاوبه الماضي،وتتنبأ به المستقبل المتقدم بالابتكارات العلمية مع مراعاة عدم إلغاء الحاضر على حساب المستقبل.

4ـ تُعد النفعية للفكر البرجماتي هي الشيء الأساسي في كل ما يعمله الإنسان، ولذلك انتقد المنهج البرجماتي ،ولكن من منا ليس بنفعي في العمل والحياة أو برجماتي يربط المنفعة بالنتيجة فأي إنسان يرغب أن يؤدي عمله إلي نتيجة طيبة مثمرة، وبالتالي فأن النقد لا يكون موجهاً للمنهج الذي يربط بين الفعل والنتيجة ،ولكن الذي يُنقَد أو يُهَاجم هي الوسيلة التي توصل إلى النتيجة أي أداة النتيجة التي تستخدم للوصول .

5. اختلف البراجماتيون في استخدامهم للمنهج البراجماتي فلقد اقتصر كلاً من "بيرس ، وديوي" تطبيقهم للمنهج في المجال العلمي والعملي دون الحاجة إلى الخوض في المجال الأخلاقي والديني .

أما "جيمس" فلقد شمل منهجه البرجماتي على الأخلاق والدين ، فلقد رأى "جيمس" أن الاعتقاد أو الإيمان من الأفكار التي تحقق آثاراً عملية بطريقة غير مباشرة . وبذلك استطاع أن يوسع مجال البراجماتية وتأكيده على أنها رغم إخلاصها للوقائع العملية المباشرة التي تُحدثها الأفكار إلا أنه لا يوجد لديه أي اعتراض ضد الإيمان بأفكار مجردة مادامت هذه الأفكار تتعلق بطريقة غير مباشرة إلى عالم الواقع المادي ، وتحقق لنا النفع المطلوب في حياتنا العملية.وبهذا يشير جيمس إلي نفعية الأديان لمعتنقيها،وتصديقاً لما أشار إليه نجد أن الأديان بمجملها تحمل في طياتها الراحة والأمان ،والحالة الوجدانية العالية لمعتنقيها.

أما فيما يتعلق بربط "وليم جيمس" المنفعة بالحقيقة فإنه كان يهدف من وراء ذلك ضرورة تجاوز التصور التقليدي في المعرفة والحقائق ، وبزوغ تصور جديد في تاريخ الفلسفة لا يعترف بأزلية الحقائق واكتمالها ، فالحقائق لابد أن تكون دائماً قيد التكوين والاصطناع.

فالمفيد والنافع معيارين ناجحين يمكن اعتبارهما مقياسين أساسيين للحكم على الأفكار والمعتقدات ، وكل ما يخص الوجود الإنساني وجوداً مؤسساً على التجارب ذات الدلالة العملية ، وليس وجوداً منفصلاً متعالياً على ما يقع من متغيرات ، وبالتالي يرسم اتجاه جديد يتم فيه الأخذ بعين الاعتبار النتائج العملية التي يمكن أن تترتب عن تصوراتنا وأحكامنا.

هذه النتائج تمثل ملخص لما تم سرده ونقده فيما توصلنا إليه في طيات صفحات بحثنا.آملين من الله التوفيق وسداد القول ،واكتمال النقائص لمن أراد البحث والشمولية للفكر البرجماتي.

قائمة المصادر والمراجع:

1.(2010) .*http//Gloshe.com.D,Dixel* dictionnaire

2. ابراهيم مصطفي ابراهيم. (1999). نقد المذاهب المعاصرة. الاسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر.

3. احمد مختار عمر. (2008). مجمع اللغة العربية المعاصرة. القاهرة: عالم الكتب.

4. الفريد ادوارد تايلور. (1992). ارسطو. بيروت: دار الطليعة.

5. اميل بوترو. (1973). العلم والدين في الفلسفة المعاصرة. (احمد الاهواني، المحرر) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

6. توفيق الطويل. (1957). مذهب المنفعة في فلسفة الاخلاق. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

7. توفيق الطويل. (د.ت). اسس الفلسفة. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

8. توفيق الطويل. (د.ت). اسس الفلسفة. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

9. جمال الكيلاني. (2002). الفلسفة اليونانية اصولها ومصادرها. الاسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر.

10. جميل صليبا. (د.ت). المعجم الفلسفي. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

11. جون لويس. (1957). مدخل الى الفلسفة . القاهرة: الدار المصرية للكتب.

12. زكريا ابراهيم. (1968). دراسات في الفلسفة المعاصرة. القاهرة: مكتبة مصر.

13. زكريا ابراهيم. (1968). دراسات في الفلسفة المعاصرة. القاهرة: مكتبةمصر.

14. زكريا إبراهيم. (1968). دراسات في الفلسفة المعاصرة. القاهرة: مكتبة مصر.

15. زكريا ابراهيم. (1968). دراسات في الفلسفة المعاصرة. القاهرة: مكتبة مصر.

16. زكي نجيب محمود. (1956). نظرية المعرفة . القاهرة: مطابع وزارة الارشاد القومي.

17. زكي نجيب محمود. (1982). حياة الفكر في العالم الجديد. القاهرة: دار الشروق.

18. زكي نجيب محمود. (د.ت). براتداند رسل. القاهرة: دار المعارف.

19. سالي فيمايد. (1998). قاموس اكسفورد الحديث. (ترجمة نجاح الشمعة، المحرر) نيويورك: جامعة اكسفورد.

20. صفاء عبدالسلام ، دعاء عبدالنظير. (2011). في الفكر الفلسفي المعاصر. الاسكندرية: دار كلمة.

21. عبدالرحمن بدوي. (1975). مدخل جديد الى الفلسفة. الكويت: وكالة المطبوعات.

22. عبدالرحمن بدوي. (1975). مدخل جديد الى الفلسفة . الكويت: وكالة المطبوعات.

23. عبدالرحمن بدوي. (1984). الموسوعة الفلسفية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

24. عزمي اسلام. (1980). اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. الكويت: وكالة المطبوعات.

25. عزمي اسلام. (1980). اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. الكويت: وكالة المطبوعات.

26. عقيل زعلان الاسدي. (2014). نقد الفلسفة المعاصرة عند محمد باقر الصدر. المركز الاسلامي للدراسات الاسلامية.

27. على سعيد حامد. (1995). فلسفات تربوية معاصرة. الكويت: عالم المعرفة.

28. ماجد فخري. (1991). تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس الى افلوطين. بيروت: دار العلم للملايين.

29. محمد ثابت الفندي. (1980). مع الفيلسوف. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

30. محمد عبدالله الشرقاوي. (1990). مدخل نقدي لدراسة الفلسفة. بيروت: دار الجيل.

31. محمد غلاب. (1938). الفلسفة الاغريقية. القاهرة: مطبعة البيت الاخضر.

32. محمد غلاب. (1963). الفلسفة الاغريقية. القاهرة: مطبعة البيت الاخضر.

33. محمد فتحي الشنيطي. (1998). مدخل نقدي لدراسة الفلسفة. بيروت: دار الجيل.

34. محمد محمود الخوالدة. (2013). فلسفات التربية التقليدية والحديثة المعاصرة. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

35. محمد مهران راشوان. (1992). المدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة. القاهرة: دار الثقافة.

36. محمد مهران رشوان. (1984). مدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

37. مراد وهبة. (1979). المعجم الفلسفي. القاهرة: دار الثقافة الحديثة.

38. مصطفي النشار. (1998). مدخل جديد الى الفلسفة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

39. مصطفي النشار. (1998). مدخل جديد الى الفلسفة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.

40. مصطفي حسيبة. (2009). المعجم الفلسفي. عمان: دار اسامة للنشر والتوزيع.

41. منصور الحجيلي. (بلا تاريخ). البراجماتية (عرض ونقد). تم الاسترداد من www.pdffactory.com.

42. منير البعلبكي. (1977). المورد. بيروت: دار العلم للملايين.

43. نعيم جعنيني. (2004). الفلسفة وتطبيقاتها التربوية. عمان: دار وائل للنشروالتوزيع.

44. نعيم حبيب جعنيني. (2004). الفلسفة وتطبيقاتها التربوية. عمان: دار وائل للنشر والتوزيع.

45. يوسف كرم. (1936). تاريخ الفلسفة اليونانية. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

46. يوسف كرم. (1989). تاريخ الفلسفة الحديثة. القاهرة: دار المعارف للنشر.

47. يوفنيسكي. (1389هـ). تاريخ الفلسفة المعاصرة في اوروبا. طرابلس: مؤسسة الفرجاني.